لغـــات الـكتابة ...

عظمتها في رصانتها ووقعها الموسيقي

للأستاذ نصيف سركيس

ترهف الآذان لكل صوت شجي، وتنجذب العواطف شطر النغم الوسيق، وتخضع القلوب مأسورة لألحان الجرس التوقيعي.

وهكذا الطبيعة في جمالها وروتقها، في صخبها وسكونها. في عبوسها وضحكها، في إشراقها وحلكتها، في تغيراتها البديعة المفاجئة إنما تبعث في النفس الحب والهيام وتشع في الروح الفتوة والكمال.

الطبيعة برعدها القاصف ما هي إلا نذير خطر يهلع له قلوب البعض وتقشعر له أبدان الآخرين.

والطبيعة في تغاريد طيورها وحفيف أشجارها ما هي إلا وحي عطوف يستمد الشاعر منها إلهامه، ويعب الكاتب منها لخيلاته ورواءه.

فإذا كان الكاتب ملهما، وله من الحواس النشطة ما يحمل إلى خبايا اللب من الداخل كل صورة لطيفة وطابع جميل فهو يعيش في نماء هذه الحياة يعبر إذا ما كتب عما يخالج نفسه، ويجول في فؤاده من تلك المناظر الطبيعية الخلابة، وأما إذا كان لا يعبأ بما يحوط به من أجواء ولا يحاول أن يستلهم من الطبيعة مادة لقلمه فهو جاف الشعور فاتر الاحساس مبتور القول والخيال.

فالطبيعة تنشد الموسيقى، وأنغامها تهتز لها الأجواء وتترنح لها دوحات الأشجار وترقص لها الطيور. والإنسان بفطرته تستهويه هذه الأنغام، وتملك عليه ناصية رشده، وزمام عواطفه فإذا قرأ رسالة منسقة، منسجمة في مقاطعها ونبراتها، تاه في خيلائها، وأخذ ينشط في تلاوتها وحذقها. وقد لا يهدأ روعه وتخمد ثورة جشعه في بعض الأحايين إلا إذا أعاد قراءة هذا المقال مرة ومرتين. فإذا ما بلغ قصده من قراءاته المتكررة يكون عقله الباطن قد اصطفى ما راق لذوقه وعذب لنفسه. فلا يشعر بعد ذلك وهو في خلوته وكتاباته إلا مكرراً لبعض ما استساغه، وقويت ذاكرته على استخلاصه.

كل ذلك وهو في نشوة من الفرح والارتياح، وكل ذلك وهو على يقين بأن قبس ذلك النور الذي أشرق على خيلائه وذاكرته إنما هو راجع إلى ذلك الأسلوب الموسيقي المذب.

فللاتساق والجرس وقع في النفس عظيم، وللجرس في توقيعه وأنغامه ما يجذب لب القارئ ويستهويه. وإذا ما تم ذلك توطدت لنا الدعائم الأولى، والتي نعمل على أساسها في إيثار كاتب على آخر.

هذا ويدلنا علم النفس على أننا نذكر دائماً كل حسن وجميل وأنه يعلق بذاكرتنا كل نغم لطيف بخلاف الأقوال المبتذلة التي تلوكها الألسنة بين حين وحين، فإنه كثيراً ما يعاف القارئ تلاوتها وتأنف النفس توفير أسباب النشاط لاستيعابها وصونها. فإن غلب على القارئ الأمر، وأجبر على النظر إلى مقال من هذا الطراز إنما يخرج منه وقد ألفى نفسه رغى وزبد لما لحقه من النكد وسوء الطالع لتصديع النفس بقراءة كلمات مرصوصة نابية، لا تنم على حسن ذوق أو فصاحة بيان

هذا ولا يحتاج الكاتب إلى استهداء العبارات السلسة ذات الجرس الموسيقي واستنداتها فهي تأتي مع السليقة والمران؛ تأتي

بني يعرب حان التأهب فاشحذوا   عزائمكم حتى يصح سقيمها
وكونوا كما كان الألى أنجبوكمُ   نفوساً كباراً واسعاتٍ همومها
إذا اتسع الهم العظيم حملنه   وقرن به حتى تضيق جسومها
فلسطينُ بابُ البيت روّع أمنها   وديس وأنتم تنظرون حريمها
فلا توجلوا من موتة ليس بعدها   سوى جنة فيحاء طاب نعيمها
ولا تطلبوا بالقول حقاً مضيماً   فبالسيف يسمو للعلى من يرومها
لقد سفرت إنكلترا وحليفها   بأوجه مَيْنٍ كالجليد أديمها
وخلتهمُ الشذاذ من كل بقعة   نفت لؤمهم حتى استراح كريمها
سنقصو ذيادا عن حقوق بلادنا   وننشدها حتى يُرَدَّ هضيمها
ليسمعَ جزارُ الشعوب بأننا   ضراغمُ غاب لا تلذ لحومها

مع القراءة لفحول الكتاب ونوابغ الشعراء ، وهى بهذا تأتى محمولة على الطبع غير متكلفة .

وهذا ولاشك يعد أعلى درجات الكلام . فإذا تهيأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها .

والألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر . فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة ، وما مثال الكاتب الذى لا يشعر بوقع أنغام العبارات الشجية فى أعماق قلبه ويجرسها الموسيقى فى صميم فؤاده إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كاوة ، وبين صورة فتاة هيفاء فاتنة الجمال ذات وجه مشرب بالحمرة ، وخد أسيل وطرف كحيل ، وثغر فاتن ، وقد مياس .

فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه . فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين الألفاظ المجوجة العادية والألفاظ المنتقاة الموسيقية ، ولا فرق بين النظر والسمع فى هذا المقام . فإن هذا حاسة وهذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب .

يقول « أبركرومبى » ولا بد للأديب أن يعرف كيف يجمع فى فنه كل ما احتوته الألفاظ من قوة التعبير والتصور ، وكل ما من شأنه أن يساعد على التوصيل بحيث يستثير الخيال ، ويصرفه كيفما شاء . ويجب أن تكون الألفاظ قوية التعبير لكى تستطيع الإبانة عن تجارب المؤلف المراد توصيلها وتفهيمها ، كذلك يجب أن تكون الألفاظ صالحة لأن تحكى تلك التجارب وتصورها بصور واضحة .

أما التشبث بأهداب اللف والدوران ، والقول بأن السهل الممتنع هو أسمى أنواع الكتابة ؛ هو فى ظاهره قول فصل لا يعتوره لبس أو إبهام . ولكن هل كل مبتذل ... سهل ممتنع وهل كل أسلوب دارج أقرب إلى لغة التخاطب منه إلى لغة الكتابة هو بيت القصيد ؟

نعم إن الجمال سهل معجب ، ولكنه سهل على من ؟ ! وبعد ماذا ؟! على الذين يقدرونه ويحبونه ، وبعد الخبرة والممارسة والتذوق والتهذيب ، فليس معنى السهولة فى جمال الفنون أنه رخيص مباح لكل من يرمقه بجانب عينه ، ولا أنه غنى عن التأمل والتفكير . ولكن معناه أنه سهل سائغ لمن يستعد له استعداده ، ويبذل فيه ثمنه . وكذلك الثمرة الشهية سهلة سائغة لمن يشتريها ويغرسها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تمطر من السماء وتطرح على التراب أو تنمو كما ينمو نبات الصحر .

ولو كان الغرض من اشتراط السهولة فى الجمال أن يكون سهلا على كل من يطلبه وبلا تفاوت فى الدرجات والمواهب لما كان فى الكتابات رسالة واحدة جميلة ، أو حقيقة بأن توصف بالجمال ، فإن كتابات شكسبير سهلة على بعض القراء ، ولكنها من الألغاز والمعميات على أناس آخرين ، وإن هؤلاء الآخرين قد يطيب لهم أساليب بيرون ، ولكنه إذ اقرئ على من دونهم من الفطنة والشعور عابوه واستثقلوه أو كابدوا فى فهمه الصعوبة التى تنفى صفة الجمال ، وهكذا إلى أن تهبط إلى طبقة تستصعب شعر هؤلاء جميعاً ، ولا تجد السهولة الجميلة إلا فى الأزجال الغثة والأناشيد الوضيعة ، وما فى منزلتها من الأساليب المبتذلة الركيكة.

فإذا جعلنا السهولة ميزاناً لنا فى الفنون ، واتخذنا الشيوع عنواناً على السهول ، فقد نتمادى فى ذلك حتى يصبح لثغ الأطفال فى عرفنا نماذج البلاغة العليا ، ثم تنحدر البلاغة سفلا حتى تنتهى إلى فحول الشعراء وأئمة الكتاب والفصحاء .

فلا صحة إذاً فيمن يقول بأننا نعمل على تقديس القديم واستساغة ألفاظ العهد الغابر ذات الجرس الموسيقى ، والذى لا يتمشى مع روح العصر ومستلزماته ، فما هذا إلا محض افتراء وقدح معيب توصم به لغة البلاد الراقية النفيسة . فالكتابات المبتذلة العادية والتى أحمل عليها حملتى الشعواء لا يمكن أن تجد دفاعاً عنها فى هذا المضمار بعد أن ثبت تفاوت الأذهان والعقليات فى الحكم على ما يدعى من الكتابات بأنها سهلة فصيحة أو سهلة ممتنعة

وهكذا فالكلام يحسن بعذوبته وجزالته ورصانته مع سلاسته ونصاعته . وإذا اشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب

فتقبله ولم يرده ، وعلى السمع المعيب فاستوعبه ولم يمجه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسى البشع . وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه وينفر عما يضاده ويخالفه ، والفهم يأنس من الكلام رقيقه وعذبه ، وينقبض عن الوخم ويتأخر عن الجافى الغليظ ولا يقبل الكلام المبتذل

وليس هذا هو الشأن فى إيراد المعانى . ولكن المعانى يعرفها الجاهل والعالم والكاتب الحصيف ذا الخيال الرائع والكاتب الناحل من كل ذوق وبراعة . وإنما الشأن هو فى جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك .

ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة والكنايات الرايقة ما عملت لإفهام المعانى فقط وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وغريب مبانيه على فضل كاتبه وفهم منشيه .

وقد قال عبد الكريم الموصلى فى كتابه « المثل السائر » :

« إن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه إلا بشىء يسير وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار فى الأتيان بالمعانى حتى ان بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول » .

لا شك أن حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا فإذا كان المعنى سبياً ورصف الكلام رديا لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ورصف الكلام جيدا كان أحسن وقعا وأطيب مستمعا . فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا وإن اختل نظمه فضمت الخبة منه إلى ما لا يليق بها افتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الألفاظ فى مواضعها ويحلى جيدها برنين الجرس الموسيقى وما يحمله ذلك من وقع جميل إلى حبات القلوب .

لا بأس بعد هذا من أن أكرر القول بأن لكل مقام مقالا وليست وظيفة الكلمات فى الأدب كوظيفتها فى العلوم . هى فى الثانية وسيلة لتفهم الأسرار العلمية فهى شىء كمالى بالنسبة للفكرة ولكنها فى الأولى جزء لا يتجزء من النص الأدبى . فالأدب يستعمل اللغة استعمالا كاملا ويستغل كل قيمتها من جمال وتأثير ومعنى ، ولا يستطيع أن يسقط الألفاظ من حسابه كما يفعل العلم أحيانا ، واللفظ فى الأدب لا يكون مجرد تصوير للفكرة وتأدية للمعنى ، فأن الرنين الذى يصحب العبارة أو الفقرة يساعد على الابتداع ويخلق فى ذهن المستمع جوا لا تقل قيمته الفنية عن إفادة المعنى .

فإذا أحطنا علما بمزايا تلك اللغة الرصينة ، وأيقنا أن زمامها مسلس لنا ، فتعودوا بها ونكبحها كيفما شئنا وكلما دعت الحال إلى ذلك . وإذا سلمنا بوقعها فى النفس وإيثار العاطفة الإنسانية لها دون غيرها فلا يكون بدعا بعد ذلك إذا ما وقفنا بها قدما وجعلنا منها نورا للهدى وينبوعا للكمال ، فهى التى لا يفتر لها إشعاع ولا ينضب لها معين .

نصيف سركيس

ظهر حديثا :

صـــوت الشعر

فى قضية فلسطين

بقلم محمد صادق عرنوس

الثمن عشرون مليما خلاف البريد

يطلب من مكتبة أنصار السنة بعابدين مصر